السّعي في نماذج من شعر فرسان الجاهليّة(دراسة فنّيّة)

د. مصطفى حسن حدّاد *

مارلين منير معلاّ**

(تاريخ الإيداع 27 / 1 / 2021. قبل للنشر في 13 / 6 / 2021)

□ ملخّص □

ينشد البحث بيان طموحات بعض الشّعراء الفرسان في العصر الجاهليّ، و الوقوف على أساليبهم في تحقيق مرادهم، فيعمل على تقصّي بعض الأنماط المُتكرّرة في شعرِهم.

وقد اختار البحث دراسة نماذج من شعر عنترة العبسيّ، و حاتم الطّائيّ، و عامر بن الطّفيل؛ فالأوّل عانى لانتزاع حرّيّته، و إثبات ذاته، و كشف بياض أفعالٍ و خصالٍ تستتر وراء دثاره الأسود، فأثبتها في شعره ليراها كلّ مَن أنكرها و عاب عليه سواد بشرته، و ثانيهما كان سيّداً من أسياد الكرم، اتّخذ لذاته مذهباً في الجود و الإيثار، و رهن حياته لذلك، أمّا عامر فكان سيّد قومه و فارساً شجاعاً، سعى إلى تخليد ذكره بالبطولة و الخُلق الحسن.

و وجد البحث بعد الدّراسة و التّحليل أنماطاً متكرّرةً في شعرهم، نذكر منها: التّرفع عن كلّ فعلٍ دنيءٍ، و السّعي الجامح إلى السّمو و الرّفعة، فهم أهل الجود و الإيثار، و خير مَن نصر الضّعيف، وَ وصلَ القريب، و ترفّع عن ردّ الشّرّ و الظّلم بمثله، في محاولةٍ لتحقيق النّموذج الإنسانيّ البطولي المثاليّ، والوصول إلى شيءٍ من خلود الذّكر، وَطيب الفعال.

الكلمات المفتاحيّة: السّعي، الجود، الإيثار، السّمو، الخلود.

* أستاذ ، قسم اللّغة العربيّة وآدابها ، كلّيّة الآداب و العلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة ، سوريّة.

** طالبة دراسات عليا (دكتوراه)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة تشرين اللاذقيّة، سورية.

Quest in Models from the Poetry of the Pre-Islamic Knights (Technical Study)

Dr. Moustafa Hassan Haddad*
Marleen Mounir Moualla**

(Received 27 / 1 / 2021. Accepted 13 / 6 / 2021)

□ ABSTRACT □

The research seeks to clarify the aspirations of the knightly poets in the pre-Islamic era and to identify the methods they used in achieving their goal. Thus, it investigates some of the repetitive patterns in their poetry..

The research has chosen to examine samples of the poetry of Antara al-Absi, Hatim al-Ta'i, and Amer Ibn al-Tafil. The first one suffered to extract his freedom and prove himself. He revealed the whiteness of actions and the good qualities hidden behind his black mantle, so he fixed them in his poetry to be realized by everyone who denied them and blamed him for the blackness of his skin. The second one was the master of generosity who took for himself a doctrine of generosity and altruism and mortgaged his life for that. As for Amer, he was the master of his people and their brave knight, who sought to immortalize his memory of heroism and good manners. .

After study and analysis, the research found out that the recurring patterns in their poetry are many, including: their raise from every vile act and their unbridled pursuit of sublime. Likewise, they are trying to achieve the ideal heroic human model to reach some kind of immortality.

Key Words: Endeavors**,** Generosity**,** Altruism, Highness, Immortality.

* **Professor – Department of Arabic Literature – Faculty of Arts and Humanities – Tishreen University– Lattakia – Syria.**

** **Postgraduate Student (Ph.D.)– Department of Arabic Literature – Faculty of Arts and Humanities – Tishreen University – Lattakia – Syria.**

مقدّمة:

سعى الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض إلى امتلاك القوّة، ليقي نفسه من أيّ خطرٍ يهدّد وجوده، و يحمي أهله و أحبّته؛ إذ لم تكن ظروفُ الحياة في العصر الجاهليّ ظروفَ سلامٍ و رخاءٍ، فانقسام المجتمع إلى طبقتي الأسياد و العبيد، نشر عداءً بين الطّرفين، فالعبد يخشى قوّة سيّده وَ ظلْمه، و السّيّد يخشى تمرّد العبد عليه، لذا فالصّراع يحكم علاقتهما، و قد تعرّضت القبائل لغاراتٍ و حروبٍ، بهدف نيل الغنائم، و الحصول على الماء و الكلأ، أو طلب الثّأر، وغيرها من العوامل الّتي صقلت شخصيّة العربيّ فارساً يجيد القتال و الدّفاع عن نفسه و عن قبيلته، و يستطيع مواجهة قسوة الطّبيعة وجفافها فـ" في الصّحراء لا حياة إلّا للقوّة، و لا احترام لقبيلةٍ و لا لفردٍ إلّا إذا كان قويّاً، إنْ كان قويّاً هابته القبائل، و إن كان ضعيفاً تكالبوا عليه، و من هنا لم يقدّس العربيّ شيئاً مثل تقديسه البطولة و الشّجاعة"[1].

إنَّ ظروف المجتمع الجاهليّ فرضت على المرء أن يكون فارساً يتقن القتال منذ نشأته،" فالمجتمع الجاهليّ كانَ يؤمن بالقوّةِ إيماناً جعلها من مقوّمات الحياة، و عنصراً أساسيّاً من عناصر البقاء[...] ثمّ صارت غايةً يفتخر بها، فكانت بالنّسبة إليهم المشغلة الأساسيّة، و كانوا يعدّون أبناءهم لها إعداداً، لأنّها مسرح الرّجولة، و البأس، و وسيلة الظّفر بالثّناء "[2] لذا رسّخ الشّعر الجاهليّ صورة الفتى العربيّ فارساً يُرهِب الخصوم، استطاع مواجهة ظروف الصّحراء القاسية و إثبات ذاته في مجتمعٍ طغت القوّة فيه على أيّ شيءٍ آخر.

ينشد البحث دراسة نماذج من شعر فرسان العصر الجاهليّ، لرصد طموحاتهم، و أنماط سعيهم لتحقيقها، فربّما جعلوا البطولة حدثاً فنيّاً ضمّنوه جُلَّ مساعيهم؛ فمنهم مَن أراد الخلود، و دحض الموت، أو نيل السّيادة و الحرّيّة، و غيرها من الأسباب و الأهداف الّتي تكشفها نصوصهم الشّعريّة، فـ " الفارس البطل كما يصوّره لنا الوعي الفنّي الجماعي في الشّعر الجاهليّ، لا يقتل حبّاً في القتل بل هرباً من الموت، و طلباً للحياة، شجاعته ليست شجاعة من يهوى المغامرات و يحبّ اختراق المجهول، أو يحارب القوى الخفيّة، أو يقاتل بأمرٍ منها، بل شجاعة المدافع عن النّفس، أو القبيلة ضدَّ غزوٍ، أو المهاجم لخصمٍ طلباً لثأرٍ أو غنيمةٍ"[3].

و قد استوقف البحثَ قدرةُ هؤلاء الشّعراء على التّعبير عن أهدافهم، و الدّفاع عن حقوقهم، بأساليب غدت سمةً مميزةً لكلّ فارسٍ منهم.

استفاد البحث من دراساتٍ سابقةٍ، عُني أصحابها بدراسة شعر الفرسان، مهتمين بمعاني الجود والإيثار، و التّرفّع عن الدّناءة ، و السّعي إلى الخلود...إلخ، من تلك الدّراسات: (الفروسيّة في الشّعر الجاهليّ) للدكتور نوري حمودي القيسيّ، و (مظاهر القوّة في الشّعر الجاهليّ) للدكتور حنّا نصر الحتّي.

وقد نهجَ البحثُ في دراسةِ النّصوصِ، منهجَ الدّراسةِ الفنيّةِ، لاعتقادهِ أنَّ هذا المنهجَ قادرٌ على إبراز جماليّةِ السّعي في شعر الفرسان ؛ ذلك أنَّ (المنهج الفنيّ وسيلةٌ لتحليلِ الأدبِ، تعتمدُ حساسيّةَ الإبداعِ للكشفِ عن مباهجِ النّصّ، بوصفه معطىً إبداعيّاً مكتنزاً بحضارةِ الجمال الأزليّ)[4]، و سيستفيد من بعض أدوات المنهج الأسطوريّ فيما يُعرف بالنّقد النّماذجيّ الّذي يرى أنَّ الرّموز النّمطيّة الّتي يكرّرها معظم الشّعراء، تصبح أنماطاً أصليّةً، تعبّر عن وجدان

---

(1)–عبد الرّحمن، عفيف. *الشعر و أيّام العرب*، دار الأندلس للطباع والنّشر و التّوزيع، بيروت_لبنان، ط1، 1984م، ص67.

(2)– الحتّي ، حنّا نصر . *مظاهر القوّة في الشّعر الجاهليّ* ، دار الكتب العلميّة، بيروت_لبنان، 1971م، ص45.

(3)–مرعي، فؤاد. *الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام*، دار الأبجديّة، دمشق، ط1، 1989م، ص47.

(1)– الصّائغ، عبد الإله. *الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصّورة الفنيّة (القدامة وتحليل النصّ)*،المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص291.

الجماعة، و يحمل الشّعر الجاهليّ في لغته، وصوره، أفكاراً نمطيّةً، كانت تشغل الشّاعر الجاهليّ، وقد عبّر عنها من خلال موضوعاتٍ تكرّرت في الشّعر الجاهليّ، ومن هذه الموضوعات ما نجده في شعر فرسان الجاهليّة من نماذج شعريّة؛ تُظهر سعيهم لنيل مطلبٍ نبيلٍ، أو الترفّع عن الأمور الوضيعة، و الأفعال الخسيسة، و سعيهم لتحقيق ذواتهم، و أحلامهم بالبقاءِ، و الخلودِ من خلال الفعل الحسن، و المطلب الرّفيع.

1-السّعي إلى السّمو والشّرف:

يُعدُّ الارتقاء، وبلوغ المجدِ، والعلوّ أهمّ طموحات الإنسان منذُ الأزل؛ إذ سعى جاداً لبلوغها، ويعكس الشّعراءُ تجاربهم في السّعي إلى السّمو، بوصفه قيمةً ترتبط بمجموعة مبادئ، وأفكارٍ، و سلوكاتٍ، ذلك أنَّ " الشّاعر العربيّ لم يكن يفهم السّمو فهماً مثاليّاً، بل غاية وسيلتها المعاناة و المواجهة الحقيقيّة لفضاء الدّهر المغلق. لقد كان يدرك أنّه في هذا الفضاء لم يجد سوى ما يمنعه من الوجود، ويبقيه في حدود الكينونة المنغلقة على فقرها الجمالي. ومن ثمَّ فإنّه يريد أن يتعالى على الدّهر في ذاته، ليرى ذاته في الدّهر"[5].

و قد سعى الشّعراء الفرسان إلى تحقيق السّمو بالبطولة؛ فالبطولة عندهم قد تتجلّى في التّرفّع عن مصالح الأنا، ونبذ الدّناءة، و رفض الأفعال القبيحة، و هم يتّسمون بصفات النبلِ، والعفّةِ، والجودِ، ويمتلكون إرادةً أبيّةً متفانيةً سامقةً إلى المجد والرّفعة والسّموّ، متعاليةً على صغائر الأمور، و في سبيل تحقيق أهدافهم سلكوا مسالك عدّة، جاءت في شعرهم لوحاتٌ تعبّر عن مُثُلهم السّامية منها:

أ-لوحات الجود، و الإيثار:

إنَّ امتلاك الأخلاق والفعل الحسن مع الشّجاعة يضمن للجاهليّ الاستقرار النّفسيّ، و التّوازن مع المجتمع، و قد تغنّى الشّعراء الفرسان بأخلاقهم الكريمة، و ترفّعهم عن المصالح، و كأنَّ حلول تلك الأخلاق و تطبيقها يريح ذواتهم، فتستقرّ و تتوازن مع عالم الجاهليّة، " فالبدوي إذاً كان يعتمد في إبقاء ذاته، و تمجيدها على نواحٍ أخلاقيّةٍ كالإفراط في الشّجاعة و المروءة و الكرم، إلى غير هذه من الصّفات الّتي خرجت عن معانيها الإنسانيّة الخالصة إلى معانٍ أخرى هي الرّغبة في تمجيد النّفس، و الخروج بالفرد أو المجموعة إلى نطاق غير مألوف يكون فيه الهدف إحراز التّفوّق، و القوّة أكثر من تحقيق المعاني الإنسانيّة"[6].

و لعلَّ أبرز الخصال الّتي تغنّى الشّعراء بها عبر التّاريخ الكرم، لكنَّه في الجاهليّة قد يختلف عن باقي العصور؛ إذ لا تحكمه المصالح و الغايات، فهو خلقٌ تحلّى به معظم الشّعراء الفرسان ليساندوا الفقراء، فكرمهم جودٌ و منحٌ من دون انتظار مقابلٍ، لذا يسمو بصاحبه، و كثيراً ما يكون العطاء في أيّام القحط و الجدب، فنجد الفارس يحرم ذاته ليطعم غيره، فيمتزج الجود بالإيثار في أرقى اللّوحات الّتي تصوّر سمو الإنسان .

و يؤكّد حاتم الطّائيّ فضيلة الجود فلا يستجيب لعاذلةٍ تنهاه عن إكرام المحتاجين قائلاً :[7]

([5])-الجهاد، هلال. *جماليّات الشّعر العربيّ(دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشّعريّ الجاهليّ*، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2007م، ص309.

([6])-الحتّي ، حنّا نصر. *مظاهر القوّة في الشّعر الجاهليّ* ، ص44.

([7])-الطّائيّ، حاتم. *الدّيوان*، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطّائي، قدّم له ووضع هوامشه و فهارسه د.حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربيّ، بيروت-لبنان ، ط1، 1994م ،ص77، 78. (أمسكْ)جاءت همزة قطع لضرورة الوزن. عرّدَ: مال للغروب، صرّدَ: قلّلَ العطاء، الممسكين: البخلاء، ذريني: اتركيني، آلوك: أُبطئ، الجُنّة: السّترة، تلحين: تلومين، ناب: نزل، السّديف: شحم سنام البعير، المسرهد: السمين الممتلئ، المذود: يذود عن قومه يدفع عنهم،

1–وَعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي وَ قَدْ غَابَ عَيُّوقُ الثُّرَيّا فَعَرّدا
2–تَلُومُ عَلَى إِعْطَائِيَ المَالَ ضَلَّةً إِذَا ضَنَّ بِالمَالِ البَخِيلُ وَ صَرَّدا
3–تَقُولُ: أَلَا أَمْسِكْ عليْكَ فَإِنَّنِي أَرَى المَالَ عِنْدَ المُمْسِكِيْنَ مُعَبَّدا
4–ذَرِيْنِي وَمَالِي إِنَّ مَالَكِ وَافِرٌ وَكُلُّ امْرِئٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدَا
5–أَعَاذِلَ لَا آلُوكِ إِلّا خَلِيقَتِي فَلَا تَجْعَلِي فَوْقِي لِسَانَكِ مِبْرَدَا
6–ذَرِيْنِي يَكُنْ مَالِي لِعِرْضِيَ جُنَّةً يَقِي المَالُ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدا
7–أَرِيْنِي جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَعَلَّنِي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلاً مُخَلَّدا
8–وَإِلَّا فَكُفِّي بَعْضَ لَوْمِكِ وَاجعَلِي إِلَى رَأْيِ مَنْ تَلْحَيْنَ رَأْيَكِ مُسْنَدا
9–أَلَمْ تَعْلَمِي أَنّي إِذَا الضَّيْفُ نَابَنِي وَعَزَّ القِرَى أَقْرِي السَّدِيفَ المُسَرْهَدَا
10–أُسَوِّدُ سَادَاتِ العَشِيْرَةِ عَارِفاً وَمِنْ دُونِ قَوْمِي فِي الشّدائِدِ مِذْوَدا
11–وَأُلْفَى لِأَعْرَاضِ العَشِيْرَةِ حَافِظاً وَ حَقَّهِمُ حَتَّى أَكُوْنَ المُسَوَّدا
12–يَقُولُونَ لِي:أَهْلَكْتَ مَالَكَ فَاقْتَصِد وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا يَقُولُونَ سَيِّدا
13–سَأَذْخُرُمِنْ مَالِي دِلَاصاً وَسَابِحاً وَ أَسْمَرَ خَطّيّاً وَ عَضْباً مُهَنَّدَا
14–وَذَلِكَ يَكْفِينِي مِنَ المَالِ كُلِّــهِ مَصُوناً إِذَا مَا كَانَ عِنْدِيَ مُتْلَدا

يستحضر حاتم العاذلة، مبرزاً حالة الإلحاح على لومه؛ إذ يُسند لها الفعل (هبّت)، و الهبوب عادةً يستدعي إلى ذهن السّامع معاني السّرعة و الرّيح العاصفة المدمّرة، أو التّأهّب السّريع لمواجهة خطرٍ ما، لكنَ العاذلة تهبُّ لتلوم حاتم، و يأتي الحدث ليلاً، كي لا تترك له وقت راحةٍ، و يبرز حاتم إصرارها على معارضته و لومه حين يجعل (عيوق الثّريّا يغيب)، فذلك الكوكب الّذي يعيق الثّريّا تركها و كفَّ عن عمله، بينما تصرُّ عاذلته على لومه، ثمَّ يذكر سبب لومها له، وهو كثرة الإنفاق، و عطاؤه بضلالٍ، و من شأن هذا الوصف أن يبرز جود حاتم فلا حدود لعطائه، و كأنّه يهب كلَّ مَن يراه بلا قيدٍ أو شرطٍ بينما يرى بخل غيره و حفظه المال، فيختلف مع العاذلة، و حين طلبت منه أن يبخل، كي يحفظ ماله و يصبح ثريّاً، رفض مفصحاً عن رأيه فجمع الثّروات ينتج عن بخلٍ، و لم يعتد حاتم ذلك، إنّه يهبُ الآخر كلَّ ما يريد، لكنّه يستثني من ذلك صفاته، فلا يقبل تغييرها إرضاءً للآخر، ولا يقبل انتقاد تلك الصّفات، فهي مسلّماتٌ يعتزُّ بها، و يرى أنّ جوده سيقي أهله من كلّ مذمّةٍ، لقد جعل مال البخيل (معبّدا)، يتراكم أمامهم لكثرة حفظه، و شدّة اهتمامه بتجميعه، و هي صورةٌ تبرز هاجس البخيل الّذي يقضي عمره في جمع الأموال، و ينفر حاتم من عمل البخلاء؛ إذ لم يعتد ذلك، و يجعل كلام العاذلة و دعوتها إلى البخل مثل مبردٍ حادٍّ يؤذيه (فلا تجعلي فوقي لسانَك مبردا)، لقد أعلن غضبه من لومها، فكرّر فعل الأمر (ذريني) مرتين، معلناً تشبثه بمذهبه في الجود، و رفضه البخل و جمع المال .

يسعى حاتم إلى إعلان رؤاه، فيعقد حواراً مع العاذلة، و لا يقتنع برأيها من دون وجود دليلٍ يثبت صحّته، فيطلب منها أن تضرب له مثلاً يقنعه، و تخبره عن شخصٍ كريمٍ وافر العطاء مات من إيثاره، و شدّة هزله، أو شخصٍ بخيلٍ ضمن بماله البقاء، و بدحض أفكارها يثبت مبادئه، ويحاول أن يبرز لها صفات جوده، فحين يحلُّ به ضيفٌ أيّام الجدب

يكرمه بأفضل اللّحوم، ويتفوّق على كلّ معطٍ؛ إذ يتكرّم مؤثراً ضيفه على ذاته في أيامٍ قلَّ الخير فيها ليكون عطاؤه عظيماً، فيسمو بهذا الخلق، و يصبح سيّد السّادة فهو مَن يحميهم في الشّدائد، ويحفظ أعراضهم، ويبذل ماله بجودٍ لهم، فيستحقُّ مكانته الرّفيعة بينهم، و سيادته عليهم.

يجعل حاتم الجود سبيلاً من سبل بلوغ رتبة السّيادة؛ فإغداقه على الفقراء يكسبهُ محبّتهم، و اهتمامه ببذل المال لتأمين السّلاح و الذّود عن قبيلته يجعله قائدهم، فيؤكّد ضرورة تضافر الكرم مع الفروسيّة، لنجده الفارس المدافع عن قبيلته، الحامي عرضها، المتأهّب دائماً لحمايتها بشتّى الوسائل، وبذلك يعلي من شأنه بين النّاس، وربّما جاء استحضار العاذلة أسلوباً فنيّاً يعبّر عن فكرٍ آخر، لا يتّفق و مبادئ حاتم، فيبرز بذلك آراءه، و يكسب مجداً و سموّاً سعى إليهما بأخلاقه.

و يعتزُّ الشّاعر بشجاعته في ساحات الوغى و أخلاقه النّبيلة قائلاً:[8]

1-لَقَدْ تَعْلَمُ الخَيْلُ المُغِيرَةُ أَنَّنا إِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ الفَعالَ أُسُودُهَا

2-عَلَى رَبِذٍ يَزْدَادُ جَوْداً إِذَا جَرَى وَقَدْ قَلِقَتْ تَحْتَ السّرُوجِ لُبُودُهَا

3-وَ قَدْ خُضِّبَتْ بِالمَاءِ حَتَّى كَأَنَّمَا تَشَبَّهُ كُمْتَ الخَيْلِ مِنْهُنَّ سُوْدُهَا

4-وَنَحْنُ نَفَيْنَا مَذْحِجاً عَنْ بِلَادِهَا تُقَتَّلُ حَتَّى عَادَ فَلاًّ شَدِيْدُهَا

5-فَأَمَّا فَرِيقٌ بِالمَصَامَةِ مِنْهُمُ فَفَرّوا وَ أُخْرَى قَدْ أُبِيرَتْ جُدُودُهَا

6-إِذَا سَنَةٌ عَزَتْ وَ طَالَ طِوَالُهَا وَأَقْحَطَ عَنْهَا القَطْرُ وَ اصفرَّ عُودُهَا

7-وُجِدْنَا كِرَاماً لَا يُحَوَّلُ ضَيْفُنا إِذَا جَفَّ فَوْقَ المَنزِلاتِ جَلِيدُهَا

8وَقَدْأَصْبَحَتْ عِرْسي الغَدَاة تَلُومُنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ هَجْرُهَا وَ صُدُودُهَا

9-فَإِنّي إِذَا مَا قُلْتُ قَوْلِي فَانْقَضَى أَتَتْنِي بِأُخْرَى خُطَّةٌ لَا أُرِيْدُهَا

10-فَلَا خَيْرَ فِي وِدٍّ إِذَا رَثَّ حَبْلُهُ وَ خَيْرُ حِبَالِ الوَاصِلِيْنَ جَدِيْدُهَا

يختار ابن الطّفيل صفات الأسد، ويضفيها على ذاته مبرزاً قوّته، و تفوّقه على الجميع، و تتكامل في فرسه صفات القوّة و السّرعة في الجري، فيرسم صورة فرسه السّريع؛ إذ يجعل جسده قلقاً، مصوّراً اهتزازه المترافق مع سرعة جريه الهائلة، و ترسم قطرات العرق خطوطاً سوداء على جلده، و لكثرتها يختلطُ على النّاظر لون الفرس فيبدو لون الفرس الكميت أسودَ .

و صورة الفرس السّريع تحمل دلالات الانطلاق، و الانعتاق، و التّحرّر من كلّ القيود، و القدرة على اجتياز كلّ الصّعاب، ببذل الجهد، فتصبّبُ العرق من الفرس يدلُّ على جهدٍ كبيرٍ بذله، و كأنّه معادلٌ موضوعيٌّ لجزئيّة من ذات الشّاعر تجسّد الرّغبة في التّحرّر و الانتصار.

و يبرز تفوّق فرسان قبيلته على الخصوم من خلال قدرتهم على إلحاق الهزيمة بكلّ مَن يواجههم، ثمَّ يلتفت إلى الكلام على أخلاقه، و أخلاق أبناء قبيلته، ففي سنوات القحط هم ملجأ كلّ فقيرٍ يقصدهم، لا يمنعون العطاء عن محتاجٍ، و

(8)- **الطفيل، عامر. *الدّيوان*، تحقيق كرم البستاني، رواية أبي بكر الأنباري عن أبي العباس ثعلب، دار صادر، بيروت، 1979م، ص – 45 47.ربذ: سريع، اللبود: ما يحمل على ظهر الفرس تحت السرج، خضبت بالماء: عرقت، مذحج: قبيلة عربيّة كبيرة و مشهورة، المصامة: أرض، أُبيرت: أهلكت، عزت: غلبت، عرس الرجل: امرأته، الخُطّة: الأمر أو الحالة ، رث الحبل: أخلق.**

العطاء في حالة الجدب يفوق أيَّ عطاءٍ آخر؛ إذ يجتمع فيه الجود و الإيثار، و لانشغاله بإكرام الضّيوف، تلومه زوجه، و يتكرّر لومها لينشئ خلافاً بينهما، ممّا يعبّر عن مبالغته في الكرم، و انشغاله الدّائم باستقبال ضيوفه، و اعتياده ذلك الأمر، فانشغاله عنها مبرّرٌ بفعلٍ يرضي ذاته، و يرقى بها.

و يعبّر عن رؤيته الودّ، و لا يخصصه لأحدٍ بذاته، و كأنه يريد الودّ الإنسانيّ الّذي يقوم على تعاملٍ تحكمه الأخلاق الكريمة، و يريد عامر أن يبقى هذا التّعامل بتجدّدٍ و استمرارٍ؛ إذ لا خير في شخصٍ يتباطأ في مدّ يد العون لغيره، فيضعف الودّ بين النّاس إذا ما تهاونوا في تطبيق كريم الأخلاق، و نلحظ اختياره كلمة (الودّ)، و هو أعظم من الحبّ لما يحمله من معاني الرّحمة و التّساند بين البشر، و لم تقتصر دعوته على نشر الودّ وحسب، فقد أراد تجديده باستمرار، فلا ينقطع بين البشر، وهذا أفضل الودّ، شبّهه بحبلٍ متينٍ يصل بين البشر ليبرز أهميّة حضوره و تطبيقه في التّعامل الإنسانيّ تطبيقاً مستمرّاً لا انقطاع فيه.

اعتزَّ عامر بفعل قومه البطوليّ، و جودهم و إيثارهم في سنوات القحط، فعطاؤهم يسمو على أيّ عطاءٍ آخر؛ إذ جاء في أصعب الأوقات حين يصعب على القبيلة إطعام أبنائها (سنة عزت، طال طوالها، أقحط عنها القطر، اصفرَّ عودها) لم يتوان عامر وقومه عن إكرام الضّيف على الرّغم من حلول القحط بهم.

ب_التّرفّع عن الدّناءة:

سعى الفرسان إلى نيل رتب الشّرف بشتّى السّبل، فهم يتّسمون بصفات العفّة و الإباء، و المروءة، و غيرها من الأخلاق الإيجابيّة، وقد نشروها في مجتمعهم و رسّخوها في أشعارهم، لتحفظ ذكرهم سامياً رفيعاً كما أرادوه.

و ليحيطوا بأوسع الصّفات الحميدة، نجدهم يذمّون الخلق المعيب، و يثبتون اتّصافهم بنقيضه، ففي أشعارهم ترفّعٌ عن كلّ فعلٍ دنيءٍ، إنّهم لا يغدرون، و لا يسترقون النّظر إلى النّساء، و يعتزّ حاتم بذلك قائلاً:[9]

1–كَرِيْمٌ لَا أَبِيْتُ اللَّيْلَ جَاذٍ أُعَدِّدُ بِالأَنَامِلِ مَا رُزِيْتُ

2–إِذَا مَا بِتُّ أَشْرَبُ فَوْقَ رَيِّي لِسُكْرٍ فِي الشَّرَابِ فَلَا رَوِيْتُ

3–إِذَا مَا بِتُّ أَخْتِلُ عِرْسَ جَارِي لِيُخْفِيَنِي الظَّلَامُ فَلَا خفِيْتُ

4–أَأَفْضَحُ جَارَتِي وَ أَخُونُ جَارِي مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيِيْتُ

يعتزُّ حاتم بكرمه، و يترك دلالات الكرم مفتوحة الأفق، تتجاوز العطاء الماديّ، و ينفي عن ذاته أن يجلس في اللّيل مهموماً يعدّ ما أصابه من مشكلاتٍ، فهو دائم التّرفّع عن الشّكوى من المصائب، و كأنّه يدعو إلى إيجاد حلولٍ لها بدلاً من الانشغال بكثرة التّحدث عنها من دون جدوى.

و ينفر حاتم من صفة الطّمع؛ إذ يعبّر عن ضرورة شعور المرء بالرّضا، و القناعة، و السّموِ على ماديّات الحياة، فحالة الشّرب الّتي تعقب الارتواء و تصل بالمرء حدَّ السّكر لا تزيده ارتواءً، و الطّمع في نيل المزيد لا يصل بالمرء إلى الاكتفاء، أو السّعادة.

أمّا أكثر الأفعال الّتي يكرهها حاتم و ينفر منها، فهي اختلاس النّظر إلى زوج جاره، و محاولة التّستر بظلام اللّيل، و يرى حاتم أنَّ قبح هذا الفعل يجعله واضحاً مكشوفاً فصاحبه يتّسم بخساسة الطّبع ووضاعة الرّتبة بين النّاس، و الظّلام لا يمكن أن يستر صفاته بعد أن خان جاره و لم يحفظ حرمة أهله.

([9])– ديوانه، ص72.جاذٍ: سائل، الأنامل: الأصابع، رزيت: أصبت به، ريّ: ما يكفيني للارتواء، أختل: أخادع، العرس: الزّوجة.

وقد اتّخذ الشّاعر من أخلاقه نمطاً يحرّره من اغترابه، و يرقى به إلى أعلى درجات السّمو، كذلك في نظرته إلى المرأة يعبّر عن رقيّه، و ترفّعه عن كلّ خلقٍ دنيءٍ، فيقول : [10]

1-وَ لَمَّا رَزَأْتُ أَخَا حِفَاظٍ سِلْعَةُ إِلَّا لَهُ عِنْدِي بِهَا مِثْلَاهَا
2-أَغْشَى فَتَاةَ الحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَ إِذَا غَزَا فِي الجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
3-وَ أَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا
4-إِنِّي امْرُؤٌ سَمْحُ الخَلِيقَةِ مَاْجِدٌ لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوْجَ هَوَاهَا
5-وَلَئِنْ سَأَلْتِ بِذَاكَ عبْلَةَ خَبَّرَتْ أَنْ لَا أُرِيْدُ مِنَ النّسَاءِ سِوَاهَا
6-وَ أُجِيْبُهَا إِمَّا دَعَتْ لِعَظِيْمَةٍ وَأُعِيْنُهَا وَأَكُفُّ عَمَّا سَاهَا

يتغنّى عنترة بالأخلاق الكريمة، وَ الصّفات النّبيلة؛ إذ يثني على كلّ امرئٍ يحفظ حسبه، ويصل رحمه، و يكافئه بأضعاف الخير الّذي قدّمه، وهنا يؤكّد ضرورة الثّناء على كلّ فعلٍ حسنٍ، فيتضاعف الخير و يسمو المجتمع، و ربّما أراد أن يبرز ذاته النّبيلة وعظيم صفاتها، فهو مَن حفظ نسبه، ووصل رحمه و إن اضطهده أهله، فاستحقّ تقدير المجتمع، و اعتراف قبيلته به سيّداً فارساً كريم الخلق.

أمَّا علاقته مع المرأة ففيها من الرّقي و الاحترام ما يسمو بعنترة إلى أعلى المراتب، فهو يصل رحمه و يطمئن على المرأة في حال وجود زوجها، لكنّه يأبى ذلك إذا غاب زوجها حفظاً لها، وصوناً لسمعتها، و إذا رأى جارته لا يديم النّظر، فيغضّ نظره حتّى تدخل بيتها.

يعتزّ عنترة بصفاته فالفارس البطل (سمح الخليقة، ماجد، لا يتبع هوى نفسه)، و في تلك الصّفات تتكامل سمات الرّقي الّتي افتقدها عنترة حين أنكره أهله، و لم يعترفوا بنسبه، فسعى إلى امتلاكها بفعله، ليثبت لهم أيّ فارسٍ عظيم الخلق فقدوا، و جميع صفاته تدلُّ على سموّه فالماجد من بلغ المجد في كلّ فعلٍ حسنٍ، و السّمح من امتلك القدرة على العفو، فرأف بمن حوله، أمّا في محاكمته الأمور فيظهر قائداً راجح العقل، لا يتّخذ قراراته عن انفعالٍ، أو عاطفةٍ، فيعلي بذلك دور العقل في الحكم على الأمور، و يؤكّد ضرورة عدم التّهور.

و يولي عنترة الحبَّ كلَّ وفاءٍ، و يجعل الأمر معروفاً مؤكّداً، تخبره عبلة لكلّ سائلٍ، تخبر السّائل إخلاص عنترة لها، و عدم اكتراثه بغيرها من النّساء، و تعلمهم مساندته لها و سعيه الدّائم لحمايتها عند أيّ خطرٍ، و امتناعه عن أيّ فعلٍ يلحق الضّرر بها، لعلَّ عبلة وجهٌ آخر لقبيلته الّتي أراد إعلان حبّه لها وتمسّكه بها، و مبادرته نحوها بوصفه الفارس الّذي ينجدها متّى اقترب منها عدوٌّ، فيحيط أهله و قبيلته بسياجٍ من الحبّ و العناية و الحماية.

فالبطولة عند عنترة تحرّرٌ من قيود العبوديّة، وانتزاعٌ لحقوقه المسلوبة، و تحقيقٌ للذّات بأبهى صورها شامخةً قويّة قادرةً على تحقيق المجد.

و يفخر عنترة بأخلاقه، فهي سبيل تفوّقه على الآخر، و السّمو على كلّ قريبٍ رفضه و أنكر نسبه، يقول :[11]

([10])-شدّاد، عنترة. *الدّيوان*، تحقيق محمد سعيد مولويّ، المكتب الإسلاميّ، القاهرة، 1964م،ص308،أغشى: أزور.

([11])-ديوانه، ص 248-250.المنصب: الحسب، المنصل: السيف، الضنك: الضّيق، المستوهل: الفارغ، أحجمت: جبنت.

1-إنّي امْرؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شِطْرِي وَأَحْمي سَائِرِي بِالمُنْصَلِ
2-إنْ يُلْحَقوا أَكْرُرْ وَإن يُسْتَلْحَموا أَشْدُدْ وَإنْ يُلفَوا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ
3-حِينَ النّزولُ يَكُونُ غَايَةَ مِثْلِنا وَ يَفِرُّ كُلُّ مُضَلَّلٍ مُسْتَوْهِلِ
4-وَلَقَدْ أَبِيْتُ عَلَى الطَّوى وَ أَظَلُّهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ
5-وَإِذَا الكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاحَظَتْ أُلْفِيْتُ خَيْراً مِنْ مُعِمٍّ مُخْوِلِ
6-وَالخَيْلُ تَعْلَمُ وَالفَوَارِسُ أَنَّنِي فَرَّقْتُ جَمْعَهُمُ بِطَعْنَةِ فَيْصَلِ

يُعنى عنترة بالكلام على ذاته، و يبدو أكثر استقراراً بعد أن أعلن حاجة قبيلته له، مبرزاً أخلاق الفروسيّة و الإباء الّتي يتّحلّى بها، إنّه يعتزُّ بنسبه، فالفعل البطوليُّ سعيٌّ إلى سلب اعترافهم به، و اعتزازهم بنسبته إليهم؛ إذ يجعل لنفسه رتبةً في قبيلة عبس مبرزاً نسبته إليهم من جهة أبيه، فلا ينكره بعد ذلك أحدٌ، أمّا وصفه تلك الرّتبة فهو (خير)، وبذلك يجمع في ذاته كلّ الصّفات الحسنة، فلا يقتصر على صفةٍ واحدةٍ، بينما يجعل نسبه إلى أمّه نقطة ضعفه، و السّبب الّذي جعل قبيله تتخلّى عنه، فوجد في القوّة و الفعل البطوليّ سلاحاً يحميه، و في ذاته القوّة، و الأخلاق الكريمة.

و يقرنُ عنترة فعله البطوليّ بإغاثة قومه؛ فيكرُّ على خصومهم حين يقترب الخطر منهم، و يحميهم من كلّ أذىً قد يصيبهم، فهو سورهم المنيع في مواجهة الخصوم، وإليه توكَلُ المهام الصّعبة الّتي يفرُّ من تنفيذها كلُّ جبانٍ، أمّا صورة صبره على كلّ الصّعاب، و تحلّيه بكريم الأخلاق فيكثّفها في قوله: (و لقد أبيتُ على الطّوى و أظلّهُ)؛ فنومه على جوعٍ و تكرّر ذلك لوقتٍ غير محدود، يدلُّ على صبره، و سموّه فلا يرضى ذليل الأمور، و يرفض نيل مبتغاه بهوانٍ، بل يسعى إلى نيله بكلّ رفعةٍ، لقد عبّر عن ذاتٍ تأبى الكسب الوضيع، فتتحمّل العناء المتكرّر مترفّعةً عن عيشٍ ذليلٍ يدنو بصاحبه إلى منزلةٍ وضيعةٍ، و في الحروب يتفوّق على أعمامه و أخواله بقوّته و إقدامه، و الفرسان الأقوياء يشهدون له ببطولته و تفوّقه على الجميع.

2_السّعي إلى الخلود:

واجه الإنسان في العصر الجاهليّ صعاباً عكرّت صفوه، فالطّبيعة لم تكن ملجأً يريحه ويحميه من شرور المجتمع، لقد واجه الجدب و الصّحراء القاسية، لذا سعى الشّاعر إلى تجاوز كلّ ما أثّر على وجوده، وهدّد استقراره، فـ" الحديث الطّويل عن الشّجاعة، و الجسارة في مواجهة تلك البيئة_كما نجد في الأدب الجاهليّ_هو محاولة الإنسان أن يتقوّى ويصبر على مقاومة هذه البيئة الجبّارة، و الانتصار عليها"[12]، وفي أشعار الفرسان لوحاتٌ لحياةٍ مثاليّة تعبّر عن صورة الحياة الّتي سعوا إليها، يملؤها الهناء والخير، و فيها محاولاتُ السّعي إلى الخلود بشتّى السّبل، لقد خاضوا أشرس المعارك، و واجهوا الموت، محاولين دحضه، و دحض كلّ من هدّدَ وجودهم، ومن محاولاتهم لتحقيق الخلود_فنّياً_ سعيهم لإضفاء صوت الحياة في أشعار الطّبيعة في لوحاتٍ تفيضُ خيراً.

أ-لوحات الحياة:

واجه الشّعراء الفرسان الموت بشتّى السّبل الممكنة، سعياً منهم إلى تحقيق نمطٍ من الخلود، فمنهم من أضفى على الطّبيعة عناصر الحياة و الخير، و قد سعى بعضهم إلى إثبات صفاتٍ تحفظ ذكره في كلّ زمانٍ، فشكّل ذلك نمطاً من البقاء و الخلود و رفض الموت.

(12)-عبد السّلام ،حسن أحمد عبد الحميد. *الموت في الشّعر الجاهليّ*. مطبعة الحسين الإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1991م، ص9، 10.

لقد نسجت مخيلاتهم عالماً يفيض بالخير و السّعادة، لدحض فكرة الموت، و تحقيق الخلود، فيرسم عنترة صورة الواحة ممزوجةً بوصف المرأة في صورة تفيض جمالاً و حياةً، قائلاً: [13]

1-إِذْ تَسْتَبِيكَ بِأَصْلَتَيِّ نَاْعِمٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيْذَ المَطْعَمِ
2-وَكَأَنَّمَا نَظَرَتْ بِعَيْنَيْ شَاْدِنٍ رَشَأٍ مِنَ الغِزْلَانِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ
3-وَ كَأَنَّ فَأْرَةَ تَاْجِرٍ بِقَسِيْمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الفَمِ
4-أَوْ رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيْلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
5-أَوْ عَاتِقاً مِنْ أَذْرِعَاتَ مُعَتَّقاً مِمَّا تُعَتِّقُهُ مُلُوكُ الأَعْجَمِ
6-جَاْدَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيْقَةٍ كَالدِّرْهَمِ
7-سَحّاً وَ تَسْكَاباً فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا المَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
8-فَتَرَى الذِّبَابَ بِهَا يُغَنِّي وَحْدَهُ هَزِجاً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
9-غَرِداً يَسُنُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فِعْلَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ
10-تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ

يظهرُ عنترة في هذه الأبيات مأخوذاً بالجمال، بعد أنَّ وقف الأطلال في مطلع القصيدة وضمّنها معاناته، و فراقه الأحبّة، واصفاً ركبهم ساعة الرّحيل، و ما أصابه من حزنٍ و ألمٍ، فالجمال الّذي يسعى إليه قد يكون رغبةً منه في تجاوز صعاب الحياة، و دحض الموت.

يبدأ لوحته الشّعريّة بالغزل، يصف ثغر عبلة (ناعم، عذب مقبله، لذيذ المطعم) فيعبّر عن جمالها الحسّيّ، و يصف علاقته بها، و قربه منها، فهو يريد قرب الأحبّة، و استمرار الحياة، إنّه يضفي على حبيبته صفاتِ الجمال والنّقاء و العذوبة، و الفرادة، فنظرتها و عيناها مثل عينيّ غزالٍ جميلٍ ليس له شبيهٌ، و يلحُّ على حضور الرّائحة الزّكيّة، فيجعلها تفوح من فم حبيبته، مثل رائحة عطرٍ اختاره تاجرٌ فلا بُدَّ أنَّه انتقى أفضل العطور، و أجملها، و يضفيه عنترة على فم عبلة مثال الجمال _عنده_ .

و يبدو أنَّ عنترة لم يحقق مراده حين شبّه رائحة فمها بفأرة التّاجر، فالتفت إلى أفقٍ أرحب، ليشبّهها بروضةٍ عامرةٍ بالحياة، و الجمال، و الرّوائح العطرة فتتلاقى كلّ تشبيهاته بتلك الصّفات، لكنَّ الرّوضة ذات عطورٍ متنوّعةٍ، و خصبٍ وفيرٍ، يختصر صفاتها بـِ (أنفاً)، ممّا يوحي بجمال نبتها، و خصوبته، و حصانته من أيّ دنسٍ، و توحي الأنفة بصفات الكبرياء، و عزّة النّفس، و كأنَّ روضته تلك معادلٌ فنّيٌّ لعبلةَ، لذا ضمّنها سمات الجمال، و الخير، و الخصوبة، و الحياة، و الكبرياء، والصّون، فلا يحدّد عنترة مكانها، و يجعلها غير معروفة، لم يطأها أحدٌ (ليس بمعلم)، أمّا الغيث قليل الدّمن فيدلُّ على خيرٍ يتساقط بتمهّلٍ على نبات تلك الرّوضة، فترتوي، و تفوح منها الرّوائح العطرة، و تمتزج برائحة الأرض المبتلّة بقطرات المطر، و لا يُغفلُ وصف الغيث الّذي يخصب الأرض و يخرج نبتها، فيضمن

([13])-ديوانه، ص194- 198.تستبيك: تذهب عقلك، أصلتي: الثّغر البرّاق، عذب مقبله: طيبة رائحة الفم، الشّادن: الغزال الشّارد، فأرة: زجاجة المسك، العوارض: الأسنان، الأنف: الّتي لم ترعَ، الدمن: البعر و الأوساخ، المعلم: المكان المشهور، العين: مطر دائم، الثّرة: الغزيرة، السّح و التسكاب: الصّب الشّديد، يتصرم: ينقطع، هزج: متتابع الصّوت، المترنّم: الّذي يمدّ الصّوت و يرجعه بالغناء، الغرد: الّذي يمدّ الصوت و يطرب، الأجذم: المقطوع الكف، السّراة: الظّهر.

استمرارها، و استمرار الحياة فيها، فالفعل (جادت) يدلُّ على العطاء الوفير، و الجود من (عينٍ ثرّةٍ) تكتنزُ الخير الوفير، و تترك أثرها في الرّوضة بركاً مائيّةً تشبه في لمعانها و بريقها الدّراهم اللّامعة. يلحُّ عنترة على إحلال الخير الدّائم، فيجعل الغيث يتكرّر كلَّ يومٍ على روضته من دون انقطاع (سحّاً و تسكاباً)، يتدفّقُ و يجري فتغدو المياه مثل نهرٍ جارٍ يحفظُ للروضةِ خصوبتها.

و بعد حلول الخير و الحياة في الرّوضة استحضر عنترة الذّباب، ليشيع الحركة و الحيويّة في روضته، لكنّه يرسم للذّباب صورةً غير مألوفةٍ، أو لنقل يبعدنا عمّا استقرَّ في أذهاننا، فيستعير للذباب أفعال البشر و صفاتهم (يغنّي، هزجاً، الشّارب، المترنّم)، إنّها تدلُّ على فيضٍ من السّعادة، و الاستمتاع يعيشه الذّباب في روضةٍ خصبةٍ يتنعّم فيها بالماء، و الغذاء، و الهدوء؛ إذ شبّه حركته و تمايله في الغناء بفعل الشّارب المترنّم، فاختار إنساناً طرباً نشوان، يتمايل بعد أن أسكره شرب الخمر، و قد اختار الذّباب من بين كلّ الكائنات، وجعله وحيداً في تلك الرّوضة، و ربّما كان الذّباب معادلاً فنّيّاً لعنترة، فجعله وحيداً لا يقلق راحته أحدٌ، و رسم له عيشاً رغيداً، و نعيماً، و فرحاً، وهو غردٌ مثل طائرٍ يصدح بأجمل الألحان فينشر أجواء السّعادة في روضته.

و يتابع عنترة وصف الذّباب، فيصوّره يصقل ذراعيه، يحك إحداهما بالأخرى، و ربّما عبّر بتلك الحركة عن رقص الذّباب أو تصفيقه، فرحاً بحلول الخير و الأمان و الهدوء، فيشبّه صورة صقل ذراعيه بصورة إنسانٍ مقطوع الذّراعين يحاول القدح لإيقاد النّار فلا يستطيع إلّا بعد تكرار المحاولة مراتٍ و مرات، فإشعال النّار قد يكون رغبةً في تحقيق الدّفء، أو طهي طعامٍ، و كلاهما يدلّ على محاولة الاستمرار في هذه الحياة، و كذلك صورة الذّباب (يسنُّ ذراعه بذراعه)، وكأنَّ الصّوت الّذي يصدر ناتجٌ عن تصفيقٍ أو رقصاتٍ، و من شأن السّعادة أن تدلّ على تمسّكه بالحياة و رغبته بالاستمرار في عيشٍ هانئٍ .

ونلحظ سمو عنترة بالذّباب إلى رتبة البشر، و اختيار الأنموذج السّعيد منهم، أو الطّائر المغرّد، و جعله منفرداً حيث لا يعكر صفوه أحدٌ، و لا تطاله يدُ الشّر و الأذى، فحرص على إحاطته بكلّ ما يحقق له أجواء الفرح و الاستقرار، و الخصب.

ويؤكّد حاتم أنَّ الجود يحفظ ذكر المرء بعد موته، ويحقّق له نوعاً من الخلود الّذي يسعى إليه، قال:[14]

1- أَمَاوِيَّ قَدْ طَالَ التَّجَنُّبُ وَالهَجْرُ وَ قَدْ عَذَرَتْنِي فِي طِلَابِكُمُ العُذْرُ

2-أَمَاوِيَّ إِنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ المَالِ الأَحاديثُ وَالذكْرُ

3- أَمَاوِيَّ إِني لَا أَقُوْلُ لِسَائِلٍ إِذَا جَاءَ يَوْماً: حَلَّ فِي مَالِنَا نَزْرُ

4- أَمَاوِيَّ إِمَّا مَانِعٌ فَمُبِيّنٌ وَ إِمَّا عَطَاءٌ لَا يُنَهْنِهُهُ الزَّجْرُ

5-أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى إِذَاحَشْرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

6-إِذَا أنَا دَلّانِي الّذينَ أُحِبُّهُمْ لِمَلْحُودَةٍ زَلْجٍ جَوَانِبُهَا غُبْرُ

7-وَرَاحُوا عِجَالاً يَنْفُضُوْنَ أَكُفَّهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ دَمَّى أَنَامِلَنَا الحَفْرُ

([14])-ديوانه، ص64، 65.النزر: القلّة، ينهنهه: يكفه، الزّجر: المنع، دلّاني: أنزلني، دمّى: أخرج الدّم و أساله، القفرة: الأرض الجرداء لا ماء فيها و لا نبات.

8- أَمَاوِيَّ، إِنْ يُصْبِحْ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الأَرْضِ لَا مَاءٌ لَدَيَّ وَ لَا خَمْرُ
9-تَرَي أَنَّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّنِي وَ أَنَّ يَدِي، مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ، صِفْرُ

يستحضر حاتم عاذلةً تنهاه عن الكرم، ويختلف معها في الرّأي، فلا نجد بينهما لقاءً(قد طال التّجنّب والهجر)، و يبرز انتصاره لرأيه في الكرم و العطاء رافضاً البخل وجمع المال، فمن شأن حضور الرّأي المضاد أن يبرز فلسفته و رؤاه، و يكشف اسم العاذلة عن رغبة حاتم في ترسيخ ثقافة الكرم؛ إذ يكرّر نداء امرأةٍ (أ ماويَّ)، و توحي دلالة اسم المرأة بالخير الوفير، و الحياة المستمرة القائمة على وجود الماء، و النّداء مُرخَّمٌ يعبّر عن لين حاتم في حديثه مع الآخر، محاولاً إقناعه، أو مرسّخاً رؤاه و ما تحلّى به من صفاتٍ، فيعبّر عن خلاصة تجاربه في الحياة، تلك التجارب كشفت عن نضجٍ فكريٍّ، فيخبر عنها بكلّ ثقةٍ و تأكيدٍ، (إنَّ المالَ غادٍ و رائحٌ)، و الخبر هنا مؤكّدٌ بـ (إنَّ)، و يعطف عليه (ويبقى من المال الأحاديث و الذّكرُ)، إنَّه لا يجعل جمع الثّروات هدفه، فلا يدوم الغنى أو الفقر للمرء، أمّا الفعل فله البقاء، و يرى حاتم أنَّ المال سبيلٌ من سبل الفعل الحسن، و الأثر الصّالح يحفظ الذّكر إلى ما بعد الموت، فالفعل (يبقى) يدلُّ على انشغال حاتم بقضية ما بعد الموت، و رغبته في تحقيق الخلود؛ إذ وجد في خصاله الكريمة سبيل بقاء الأثر، فيؤكّد على العطاء المترافق مع الأخلاق، و يتفوّق على كلّ كريمٍ حين يجعل للعطاء قواعد تنظمه، فلا يُظهِرُ قلّة ماله أمام محتاجٍ كي لا يحرجه، و عندما يَحرِم المحتاجَ من المساعدة يُبرر له سبب امتناع العطاء، و لا يُهان أو يُستهزأُ به بعد عطائه، و يَخلص حاتم إلى عِبرةٍ مُفادُها أنَّ الغِنى لا يحمي المرء من الموت.

و يبرز حاتم أنَّ الحياة فانيةٌ، لا قيمة لكنوزها الماديّة ساعة يأتي الموت؛ إذ يصوّر مفارقةً تستوقف القارئ، فحين يموت سيحمله مَنْ أحبّوه إلى حفرة كثيرة الغبار، يبقى فيها وحيداً، و يرحل أحبّته، فمصير الإنسان إلى القبر مهما عاش منعّماً، و لا يمكن لأقرب النّاس مساندته، إنّهم يرحلون عنه عجالاً، متذمّرين من الغبار وصعوبة حفر قبره، فلا قيمة لكلّ ما يملك، سيترك كلّ ما جمعه من كنوزٍ، لذا يؤكّد على توظيف المال في عطاء المحتاج، لأنّ الذّكر الحسن يحفظ بقاءه، و في تلك الحفرة لن يتمتّع بملذّات الحياة، و لن يأخذ معه مالاً جمعه بسبب بخله.

أمّا عنترة فيرفض موت الطّلل، ويدعو للديار بالخير، قائلاً : [15]

1-هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرِفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
2-أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَالأَصَمِّ الأَعْجَمِ
3-وَلَقَدْ حَبَسْتُ بِهَا طَوِيْلاً نَاقَتِي أَشْكو إِلَى سُفْعٍ رَوَاكِدَ جُثَّمِ
4-يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ وَ اسلَمِي
5-دَارٌ لآنِسَةٍ غَضِيْضٍ طَرْفُهَا طَوْعِ العِنَاقِ لَذِيْذَةِ المُتَبَسِّمِ
6-فَوَقَفْتُ فِيْهَا نَاقَتِي وَ كَأَنَّهَا فَدَنٌ لِأَقْضِيَ حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ

يسيطر على الوقفة الطّلليّة حزنٌ، فقد استهلَّ عنترة معلّقته بذكر أطلالٍ مهدّمةٍ هجرها شعراؤها، و ربّما عبّر عنترة عن ثورته على الأطلال الّتي يشيع فيها الموت؛ إذ يسأل ذاته عن ديارٍ خاويةٍ حرّكت آثارها ذكرياتٍ قديمةً، لكنّه لا يجد

([15])-ديوانه، ص182- 184.متردّم: ردمت الشّيء أصلحت ما وهى منه، أعياك: خفي عليك، الرواكد: المقيمة السّاكنة، السّفع: السود، الآنسة: ذات الأنس، غضيض طرفها: نظرتها فاترة، الفدن: القصر، المتلوم: المنتظر المتمكث.

فيها ما يريحه، فالأفعال (أعياك، لم يتكلّم، أشكو) عبّرت عن قلق عنترة و توتّره، و صفات الطّلل عزّزت دلالات الموت (متردّم، رسم الدّار، الأصمّ، الأعجم، سفع، رواكد، جُثّم).

و يبرز اغترابه؛ فعبارة (حبست بها طويلاً ناقتي) تدلُّ على غربةٍ طويلةٍ، و انقطاعٍ عن الدّيار و أهلها، إنّه مُقيّدٌ بهم، فلا يستطيع نسيان تلك الذّكريات الّتي تربطه بالمكان و أهله، و لا يستطيع إلى وصالهم سبيلاً فيُظهر معاناته و يشكو لجوامد لا تسمعه، و كأنّه يناشد أنيساً يجيبه، و أهلاً يبادلونه الودَّ، فلا يجدُ مجيباً، إنّه يُضمّن الطّلل جُلَّ معاناته، لكنَّ الأمر الّذي يستوقفنا كيف واجه عنترة الفارس البطل اندثار الدّيار، و البعد عن الأهل، و رفضهم له؟

يُظهر عنترة جانباً إنسانيّاً يسمو إلى أعلى درجات الحبّ، و التّسامح، و التّمسّك بالأهل و إنْ تخلّوا عنه، فحين خاطب دار عبلة، و أراد منها أن تتكلّم رغب بوصالٍ مع الأهل و الأحبّة، و أراد لهم صباحاتٍ يتجدّد الخير و الحياة و الإشراق فيها، فتسلم من كلّ أذىً، و يسلم أحبّته أيضاً، و حضور المرأة في و صفه تلك الدّيار يضفي عليها حياةً و جمالاً، فقد أراد عنترة إحلال الحياة بديلاً من الاندثار و الدّمار، فجعل الدّيار (دار لآنسةٍ) ليحلَّ الأنس مكان الوحشة، ثمَّ وصف المرأة (غضيض طرفها، طوع العناق، لذيذة المتبسّم)، فغضاضة طرفها صفة جمالٍ مُستحبَّةٌ، أمّا كونها طوع العناق، و لذيذة المتبسّم فهذا يدلُّ على تقاربٍ يجمعهما، و حبٌّ وودٌّ يحكم علاقته بسكّان تلك الدّيار، أو بمحبوبةٍ بينهم، و ربّما أراد إثبات ذلك الودّ بديلاً من البعد و الفراق و رفض أهله له.

و إذا قارنّا بين قوله : (حبستُ بها طويلاً ناقتي)، و قوله :(فوقفتُ فيها ناقتي)، نجدُ فروقاً بين الوقفتين، ففي البداية كان في ضيقٍ من أمره يقف مرغماً مُقيّداً مجبراً و تطول وقفته، أمّا الوقفة الثّانية فقد ذكرها بعد أن استرجع ذكريات الأهل و الأحبّة، و أظهر مشاعره النّبيلة لهم، فجاءت وقفته ليريح ذاته ثمَّ يسعى إلى التّحرّر و الانطلاق، ففعل الوقوف يوحي بصراعٍ نفسيٍّ بين الرّغبة في تذكّر الماضي (أيّام الوصال)، و الرّغبة في الانطلاق و الانعتاق و التّحرر من الحاضر المليء بالتّشتت و الضّياع و الفراق.

و ربّما كانت النّاقة هنا معادلاً موضوعيّاً لجزئيّة من ذات عنترة تجسّد الرّغبة في التّحرّر، و الانعتاق حالها حال الفرس؛ فهو مَن شعر بالضّيق و الرّغبة في الانطلاق والتّحرر، أمّا تشبيه النّاقة (كأنّها فدنٌ) فيوحي بحاجته إلى القوّة، فقد جعل ناقته ضخمةً أشبه بالبنيان (القصر) مختاراً من الأبنية أعظمها و أجملها و أكثرها مقاومةً لقسوة الطّبيعة، لقد أراد القوّة و المنعة لذاته، و لناقته، لتكون النّاقة جسر عبورٍ و تحرّرٍ من قيود الماضي.

ب-لوحات البطولة:

يشغل وصف الحروب و الانتصارات شعر الفرسان، فالحرب هي النّشاط المسيطر على حياتهم، و سلاح البقاء في مواجهة أعدائهم، و ربّما وجدوا في الانتصار ما يريح ذواتهم الطّامحة إلى المجد، الرّاغبة بالخلود، فالقوّة تضمن لهم المكانة بين القبائل، و تدرأ عنهم أيَّ خطرٍ يهدد استقرارهم، إنَّ الفارس يُشغَفُ بالحرب وَ" يرى لها غايةً، و يجني من ورائها كسباً و حمداً و تخليداً لذكره، وحمايةً لحقيقته، و حفاظاً على قومه، و تأكيداً لسطوته و بطشه"[16].

ويمزج الشّاعر الفارس وصف الحرب مع التّغنّي بأخلاقه الكريمة، فيرسم حاتم لوحته الشّعريّة الّتي تفيض فروسيّةً، تحفظ ذكره وتحقق خلوده قائلاً:[17]

([16])-يوسف ، حسني عبد الجليل. *الأدب الجاهليّ(قضايا و فنون ونصوص)*، مؤسسة المختار للنشر و التّوزيع، القاهرة، ط1، 2001م، ص146.

([17])-ديوانه، ص 56، 57.الثّناء: المدح، لا تعذليني: لا تلوميني، يدنّي، يقرّب، المغلغلة: رسالة تُحمل من بلدٍ إلى بلد، المحك: المنازعة، نكل: تراجع عن الشّيء جبناً، الدّيّات: الواحدة ديّة ثمن دم القتيل، الكالح: الشّديد، المحافظة: الوفاء بالعقد، ألفاني: وجدني.

1-مَهْلاً نَوارُ أَقِلّي اللَّوْمَ وَ العَذَلا وَلَا تَقُوْلِي لِشَيءٍ فَاتَ:مَا فَعَلَا
2- وَلَا تَقُوْلِي لِمَالٍ كُنْتُ مُهْلِكَهُ: مَهْلاً وَإِنْ كُنْتُ أُعْطِي الجِنَّ وَ الخَبَلا
3-يَرَى البَخِيْلُ سَبِيْلَ المَالِ وَاحِدَةً إِنَّ الجَوَادَ يَرَى فِي مَالِه سُبُلا
4-إِنَّ البَخِيْلَ إِذَا مَا مَاتَ يَتْبَعُهُ سُوْءُ الثَّنَاءِ وَ يَحْوِي الوَارِثُ الإِبِلا
5-فَاصْدُقْ حَدِيْثَكَ إِنَّ المَرْءَ يَتْبَعُهُ مَا كَانَ يَبْنِي إِذَا مَا نَعْشُهُ حُمِلَا
6-لَيْتَ البَخِيْلَ يَرَاهُ النَّاسُ كُلُّهُمُ كَمَا يَرَاهُمْ فَلَا يُقْرَى إِذَا نَزَلا
7-لَا تَعْذِلِيْنِي عَلَى مَالٍ وَصَلْتُ بِهِ رِحْماً وَ خَيْرُ سَبِيْلِ المَالِ مَا وَصَلا
8-يَسْعَى الفَتَى وَحِمَامُ المَوْتِ يُدْرِكُهُ وَكُلُّ يَوْمٍ يُدْنِّي لِلْفَتَى الأَجَلَا
9-إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنِّي سَوْفَ يُدْرِكُنِي يَوْمِي وَ أُصْبِحُ عَنْ دُنْيَايَ مُشْتَغِلا
10-فَلَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتٌ غَيْرُ مُدْرِكَةٍ لِأَيّ حَالٍ بِهَا أَضْحَى بَنُو ثُعَلا
11-أَبْلِغْ بَنِي ثُعْلٍ عَنِّي مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا مَحْكاً وَلا بُطُلا
12-اغْزُوا بَنِي ثُعْلٍ فَالغَزْوُ حَظُّكُمُ عُدُّوا الرَّوَايا وَ لا تَبْكُوا لِمَنْ نَكَلا
13-وَيْهاً فِداءٌ لَكُمْ أُمّي وَمَا وَلَدَتْ حَامُوا عَلَى مَجْدِكُم وَاكْفُوا مَن اتَّكَلا
14-إِنَّا تِجَارَتُنَا قَوْدُ الجِيَادِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ وَ إِنَّا نَقْسِمُ النَّفَلا
15-تَحَالَفَتْ طَيِّئٌ مِنْ دُونِنَا حَلِفاً وَ اللّهُ يَعْلَمُ مَا كُنَّا لَهَا خُذُلا
16إِذَاغَابَ مَنْ غَابَ عَنْهُم مِن عَشِيْرَتِنَا أَبْدَتِ الحَرْبُ نَاباً كَالِحاً عَصِلا
17اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي ذُو مُحَافَظَةٍ مَا لَمْ يَخُنِّي خَلِيلِي يَبْتَغِي بَدَلا
18فَإِنْ تَبَدَّلَ أَلْفَانِي أَخَا ثِقَةٍ عَفَّ الخَلِيْقَةِ لَا نِكْساً وَلا وَكَلا

يبدأ حاتم قصيدته بأسلوبٍ فنيٍّ يستحضر العاذلة، و يعلن اختلافهما في الرّأي، و يلفت انتباه المتلقّي حين يختار للعاذلة اسم (نوّار)، و كأنَّها تضيء جانباً أراد إبرازه، فنوار تلومه على كثرة إنفاقه، و هو بذلك يعبّر عن مذهبه في الحياة؛ إذ يرى ضرورة ألَّا يفكّر المرء أين أنفق ماله، و لا يتردّد في العطاء.

و يلتفتُ إلى إعلانِ أفكاره متناسياً عاذلته، فيعقد مقارنةً بين البخيل و الجواد، فالبخيل مقيّدٌ بفكرةٍ واحدة تحفظ له ماله، بينما يجعل الكريم ماله أفقاً واسعاً و مجالاتٍ متعدّدةً، و يترك للقارئ أن يتخيّل أيَّ قيدٍ يقيّدُ ذاك البخيل الّذي يخيّم عليه التّفكير بالمال و جنيه و حفظه، فيذهب عمره هباءً، ويُذكَرُ بعد موته بصفاتٍ سلبيّةٍ جلبها له بخله، أمّا ما جمعه فسيذهب إلى وارثيه، فلا ينعم به في حياته، و لا يترك له أثراً حسناً بعد موته، بينما يفتح المال الآفاق أمام الكريم، فيُكسِبه الفعل الحسن، و الذّكر الصّالح بين النّاس، و يحقق مكانةً عظيمةً في قومه، وربّما أراد حاتم لذاته تلك المكانة الرّفيعة السّامية، و اتّخذ من جوده سبيلاً لتحقيق مراده .

و نجده يركّزُ على صفة الجود، فهي تفوق الكرم، فالجواد لا ينتظر شيئاً مقابل عطائه، أمّا رحلة حياة الإنسان فيشبّهها بالبناء، فإن أحسن المرءُ البناء بفعلٍ صالحٍ و خلقٍ حسنٍ، نال جزاء فعله حتّى بعد موته، و إنْ أخفق في عمله، سيتبعه الذّكر الذّميم، لذلك عليه أن يحرصَ على الفعل الحسن.

إنَّ حاتم ينفر من صفة البخل، و يتمنى أن ينفر كلُّ النّاس من البخيل، فيعاملونه كما يعاملهم و لا يُكرَّم حين يَحلُّ ضيفاً، و ربّما رأى أنَّ كشف بخل الإنسان البخيل، و نفور النّاس منه، وعدم إكرامهم له، قد يؤدّي دوراً في تقييد انتشار البخل، و بذلك يقدّم حلّاً للتّخلّص من هذه الصّفة الذّميمة.

و نجده يستحضر العاذلة مرّةً أخرى، إنّها تلومه على كثرة الإنفاق، فيعارضها منتصراً لمذهبه في العطاء، ليختار أعلى درجات الخير، حين يُسخّر المال لأهدافٍ نبيلةٍ، فيجعله طريقةً لصلةِ الرّحم، و يرى أنَّ الهدف الأسمى لبذل المال هو التّواصل بين النّاس و بناء العلاقات على أساسٍ إنسانيٍّ، و يختم رؤيته بتحذير النّاس من الموت، كي يسعوا إلى مرادهم في الحياة، و يفعلوا ما يُخلّد ذكرهم الحسن بعد الموت.

و يلتفت حاتم إلى نمطٍ آخر من أنماط السّعي، يبرز فيه شخصيّة الفارس الّذي يغزو قومَ (ثعل)، مبرزاً تفوّقه على خصومه، و يظهر حاتم قائداً يوجّه جيشه، و يدعم تقدّمه (عدّوا الرّوايا)، إنّه يدعوهم إلى الاستمرار في فتك الأعداء، وعدم الاكتراث بما قد يحدث في صفوفهم من خسائر، فلا يصيبهم حزنٌ على إصابة أحدهم بجروح، و هو بذلك يحفظ قوّة فرسانه و تماسكهم حتّى النّصر، و لا يتوانى حاتم عن افتدائهم بأعزّ ما يملك، فيجعل أمّه و إخوته افتداءً لهم، ليبثَّ الطّمأنينة في قلوبهم، و يبرزَ ارتباط القائد بفرسانه، ويدفعهم إلى القتال حتّى تحقيق النّصر، أمّا غزوهم فيرمي إلى غنائم يُحسنُ حاتم توزيعها بعدلٍ على الفرسان، و يؤكّد ارتباطه بقبيلته، واستعداده الدّائم لافتدائها، و نصرتها، و مواجهة خصومها حمايةً لها، فلو تخلّى الجميع عن طيّئ لا يخذلها حاتم، و لا يخذل صديقاً حتّى لو تغيّر معه، فلا يعامله بقسوةٍ و صدودٍ، إنّه يصون ما بينهما، و يظلّ سنداً لصديقه و عوناً له عندما يحتاجه، فيرقى حاتم بأخلاقه و قيمه السّامية، محققاً لذاته الخلود.

و يُبرز عامر بن الطّفيل فروسيته، و حُسن بلائه في ساحات الوغى:[18]

([18])–ديوانه،ص 14– 18.انتترت: انجذبت، الأصرة: ج صرار خيط يشد به خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها، تسربل: لبس السربال، الضير: الضرر، بركها: صدرها، خشب الأثأب: الميت المتصلب، الأيم: من مات زوجها، القلح: صفرة تعلو الأسنان، كَلِبَ الزمان: اشتدَّ، نكأت القرحة: –قشرت عنها الجلبة التي تعلوها، ضرغد: موضع، جزر السباع: لحم، الأهدب: الطويل، الخرق: الذي تنخرق فيه الرياح، المحرب: صاحب الحرب، الأغلب: الغليظ الضخم، الحذل: سقوط الشعر من جفن العين من البكاء، الشجو: الحزن، خيشومها: أنفها، الكلكل: الصدر و معظم القوم، المنكب: ناحية كل شيء و جانبه، قرنّهم: جمعنهم، المشعب: الموت.

1-إِنِّي إِذَا انْتَتَرَتْ أَصِرَّةُ أُمّكُمْ ممّنْ يُقَالُ لَهُ تَسَرْبَلْ فَارِكَبِ
2-لَا ضَيْرَ قَدْ حَكّتْ بِمُرّةَ بَرْكَهَا وَتَرَكْنَ أَشْجَعَ مِثْلَ خَشْبِ الأَثْأَبِ
3-لَا يَخْطُبُونَ إِلَى الكِرَامِ بَنَاتِهِمْ وَتَشَيبُ أَيّمُهُمْ وَلمَّا تُخْطَبِ
4-أَفَرِحْتَ أَنْ غَدَرَ الزَّمَانُ بِفَارِسٍ قُلْحَ الكِلَابِ وَ كُنْتُ غَيْرَ مُغَلَّبِ
5-يَا مُرَّ قَدْ كَلِبَ الزَّمَانُ عَلَيْكُمُ وَ نَكَأْتُ قَرْحَتَكُمْ وَ لمَّا أُنْكَبِ
6-وَ تَرَكْتُ جَمْعَهُمُ بِلَابَةِ ضَرْغَدٍ جَزَرَ السّباعِ وَ كُلِّ نَسْرٍ أَهْدَبِ
7-وُلَقَدْ أَبَلْتُ الخَيْلَ فِي عَرَصَاتِكُمْ وَسْطَ الدّيَارِ بِكُلِّ خِرْقٍ مِحْرَبِ
8-وَشَفَيْتُ نَفْسِي مِنْ فَزَارَةَ إِنَّهُمْ أَهْلُ الفَعَالِ وَأَهْلُ عِزٍّ أَغْلَبِ
9-وَ لَقَدْ فَخَرْتَ بِبَاْطِلٍ عَدَدْتَهُ فَإِذَا أَتَيْتَ بُيُوْتَ قَوْمِكَ فَاحْسُبِ
10-فَلَتَتُخْبِرَنَّكَ فَاقِدٌ عَنْ شَجْوِهَا حَذِلٌ مَدَامِعُهَا بِدَمْعٍ سَيْكَبِ
11-وَلَقَدْ لَحِقْتَ بِخَيْلِنَا فَكَرِهْتَهَا وَصَدَدْتَ عَنْ خَيْشُومِهَا المُسْتَكْلِبِ
12-فَبَنِي فَزَارَةَ قَدْ عَلَوْنَ بِكَلْكَلٍ وَ الحَيَّ أَشْجَعَ قَدْ رَمَيْنَ بِمَنْكِبِ
13-غَادَرْنَ مِنْهُمْ تِسْعَةً فِي مَعْرَكٍ وَثَلَاثَةً قَرَنَّهُمْ فِي المِشْعَبِ

يبرزُ عامر تفوّقه على كلّ مَنْ حوله مستهزئاً بخصومه؛ فحين يُشغلُ خصومه بأعمال النّوق، يتجّهز بلباس المحارب ليقود الجيوش، فهو ينظر إلى خصمه نظرة استخفافٍ، بينما يعلي من شأن ذاته، ثمَّ يصوّر لنا هول الحرب على خصومه، و عجزهم أمامها؛ إذ جعل الحرب كائناً ضخماً ثقيل الصّدر، أنهك (عمراً) لمجرّد احتكاكه به، و تصلّب جسد (أشجع) و غدا خشباً جامداً لشدّة فتكها، و ربّما اختار اسم الخصم (أشجع)، بصيغة اسم التفضيل ليدلَّ على ضعف أكثر خصومه شجاعةً وعجزه عن مواجهة الحرب وتخطّيها بنصرٍ أو نجاةٍ، ممّا يعمّق ضعف خصومه أمامه، و تفوّقه عليهم، و يتابع في هجائه الخصوم؛ فيعيب نساءهم من دون تعداد صفاتهنَّ؛ إذ لا يتقدّم لخطبة إحداهنَّ كريمٌ، و يترك للمتلقّي أن يمعن في صفاتهنَّ، و سوء معشرهنَّ، ثمَّ يلتفتُ إلى هجاء (مرّة)، لينال منه، وينتقم لذاته، فيردَّ على هجائه، و يجعله وضيعاً(قُلح الكلاب)، مؤكّداً أنَّ شماتة مرّة به جاءت في لحظةٍ جار الزّمان بها على فارسٍ شجاعٍ، و ما كان ذلك عن ضعفٍ منه، فهجومه على قوم مرّة يكشف قوّته، و نلحظ فعل الزّمان؛ إذ يغدر بعامر في لحظةٍ معيّنةٍ، لكنّه لا يغلبه (وكنتُ غيرَ مُغلَّبٍ)، بينما يأتي فعل الزّمان على مرّة وقومه قاسياً (قد كلب الزّمان عليكم)، و يؤكّد حدوثه بكلّ ما يحمله من سطوةٍ وقسوةٍ، و ما فعل الزّمان هنا إلّا تعبيرٌ عن فعل عامر وجيشه بخصومهم (نكأتُ قرحتكم)، فالفعل نكأت يدلُّ على التّقشير و الإزالة، و كأنّه يعريهم و يفضح زيف قوّتهم و ادّعاءاتهم، و يخترق ديارهم تاركاً فرسانهم لقمةً سائغةً للطيور، بينما لا يُصابُ منهم بأذى، فيتفوّق على خصومه، ويجعل انتصاره عليهم شفاءً لنفسه، و كأنَّ الانتصار إعلاءٌ لذاته، و تطهيرٌ يمنحها الارتياح.

لقد جعل هزيمة خصومه، ودموعهم شاهدَ زيف ادّعاءِ مرّة، و نزعه من قبيلته، فوصف قبيلة مرّة بأنّهم (أهل الفعال و أهل عز أغلب)، بينما جعل مرّة يفخر بباطلٍ لا يتّصف به، فانتصاره على قومٍ أقوياء يمنحه صفات البطولة ، أمّا مرّة فهو المهجو مسلوب القوّة.

يختم عامر قصيدته بتأكيد هزيمة خصومه، و تحقّق نيله من مرّة، لترتاح ذاته المتأبّية إلى البطولة و الرّفعة، و تجد توازنها مع العالم الخارجيّ.

و تُحقّق البطولة لعنترة وصال الأهل وإثبات ذاته أمامهم ، إنّه يدحض الموت بالانتصار محقّقاً الخلود بفروسيّته، قال عنترة:[19]

1–طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ المَنْزِلِ بَيْنَ اللَّكِيْكِ وَ بَيْنَ ذَاتِ الحَرْمَلِ
2–فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّـراً أَسَلُ الدِّيَارَ كَفِعْلِ مَنْ لَمْ يَذْهَلِ
3–لَعِبَتْ بِهَا الأَنْوَاءُ بَعْدَ أَنِيسِهَا وَ الرَّامِسَاتُ وَ كُلُّ جَوْنٍ مُسْبِلِ
4–أَفَمِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ في أَيْكَةٍ ذَرَفَتْ دُمُوعُكَ فَوْقَ ظَهْرِ المَحْمَلِ
5–كَالدُّرِّ أَوْ فَضَضِ الجُمَانِ تَقَطَّعَتْ مِنْهُ عَقَائِدُ سِلْكِهِ لَمْ يُوصَلِ
6–لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ مُزَّةَ إِذْ دَعَا وَ دُعَاءَ عَبْسٍ فِي الوَغَى وَ مُحِلَّلِ
7–نَادَيْتُ عَبْساً فَاسْتَجَابُوا بِالقَنَا وَبِكُلِّ أَبْيَضَ صَارِمٍ لَمْ يَنْجَلِ
8–حَتَّى استَبَاحُوا آلَ عَوْفٍ عُنْوَةً بِالمَشْرَفِيِّ وَ بِالوَشِيْجِ الذُبَّلِ

تبدأ القصيدة بوقفةٍ طلليّةٍ طويلةٍ، يبدي عنترة من خلالها ارتباطه بالأهل؛ فالوقفة (على رسوم المنزل)، إنّه محدّدٌ معروفٌ يجعله بين منطقتي (اللّكيك، و ذات الحرمل)، فغدا المنزل منازلاً، إنّه يُضمّن الطّلل أزمته، فبعده عن أهله و رفضهم له أرّقه، و فعل الوقوف يوحي بأزمته تلك؛ إذ يترافق مع حيرته، و لا يفصح عن سبب حيرته، أ خلاء الدّيار و اقفرارها أم بعد الأهل عنه؟، لكنّه يعلن تمسّكه بهم، حين يشبّه تمسّكه بهم بفعل من لا يسلو عن دياره حتّى إن تلاشت و درست، إنّهُ مشدودٌ إلى ماضي تلك الديار حين كانت مأهولةً، و يحزنه حاضرها، بعد أن دمّرها فعل الطّبيعة بقسوةٍ، ففعل المطر و الرّياح هنا فعلٌ تدميريٌّ، و يحضر رمز الحمامة الّتي تبكي ليكشف معاناة عنترة، فصورتها " ترتبطُ بنسقِ الصّور الدّالّةِ على معاني الحزنِ، وافتقادِ الأمانِ"[20]، و قد استحضر القصّة الّتي تروي أنَّ الحمام حزينٌ لفقده طيره الصغير، فـ " العرب تزعمُ أنَّ الهديل فرخٌ هلكَ في الزّمان الأوّل، فلا تزال الحمائم يبكينهُ شجواً وحزناً " [21]، فالحمامة هنا معادلٌ موضوعيٌّ لعنترة في حال حزنه، أو إنّها معادلٌ موضوعيٌّ لجزئيّةٍ من ذات عنترة تجسّد الحزن الدّفين، فكلاهما يبكي الفقد، أمّا صورة انهمار الدّموع الّتي شبّهها عنترة بصورة عقد قطع سلكه فتساقطت حبّاته، و حضور الانقطاع في صورته قد يدلُّ على الانقطاع عن أهله، وفقده الأمل بوصالهم، ثمَّ يلتفتُ إلى موضوعٍ آخر، محاولاً إبراز موقفه من أهله، فدعوتهم له عند الشّدائد إعلاءٌ لشأنه، و إبرازٌ لقدراته البطوليّة، و استجابته لهم ترّفعٌ منه و سموٌّ في أخلاقه، فلبّى نداءهم و حارب خصومهم محققاً معهم النّصر.

إنَّ الفعل البطوليّ الممزوج بسموّ خلق عنترة شكّل ردّة فعله على قبيلته، فمقابل رفضهم له سعى إلى نجدتهم، وحقق بقوّته و فروسيته ذاته أمام قبيلته الّتي طلبت عونه، و أعاد صلته بهم بعد انقطاعٍ.

لقد اتّخذ عنترة من صفاته، وبطولته نمطاً لإبراز تفوّقه على أهله، و حاجتهم له، فبدّدت الفروسيّة اغترابه.

([19])–ديوانه، ص246– 248.الثّواء: الإقامة، اللكيك و ذات الحرمل: موضان، عرصات: فناء الدار، الأنواء: الأمطار، الرامسات: الرياح، الجون: الأسود من السحاب، مسبل: منسكب المطر، الأيكة: الشجر الملتف، الوغى: الصوت في الحرب، القنا: الرّمح، الصّارم: السيف القاطع، لم ينجل: لم يشحذ حتى يذهب بحديده، الوشيج: الرماح، الذُّبَّل: ج ذابل الجاف.

([2])–حدّاد ، مصطفى. *رمزيّة الأنثى في الشّعر الجاهليّ بحث في الميثولوجيا الشّعريّة(رسالة دكتوراة)*، إشراف د. محمود عليّ مكيّ، جامعة القاهرة، 1996م، ص104.

([3])– الطيّب، عبد الله . *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها*، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت،ج3، ط2 ،1989م ، ص168.

الخاتمة:

عبّر الشّعراء الفرسان في لوحاتهم الشّعريّة عن رؤاهم، و فلسفتهم في الحياة، و في أشعارهم تتداخلُ أنماط سعيهم فقد نجد في القصيدة الواحدة جودهم، وإيثارهم، و ترفّعهم عن الدّناءة، لبلوغ غايات السّمو و الشّرف و الإباء، و وصف بطولاتهم، و مواجهة الموت بإضفاء عناصر الحياة على الطّبيعة سعياً منهم إلى تحقيق الخلود.

سعى عنترة إلى إثبات ذاته ببطولاته و أخلاقه الكريمة، فسلب اعتراف قبيلته به، و أصبح فارسها الّذي يُعتمَدُ عليه في تحقيق تلك الانتصارات، و إعلاء شأن القبيلة، و ربّما منحته تلك الانتصارات الحريّة و التّفوّق، و الاستقرار النّفسيّ و التّوازن مع مجتمعه، و قد عبّر عنترة عن نظرته الجماليّة حين أضفى على الطّبيعةِ الجمال، و الحياة، و غدت روضته مثال الحياة الهانئة، و كأنّها صورة الحياة كما أرادها عنترة أن تكون.

أمّا حاتم الطّائيّ فقد أراد لذاته خلود الذّكر، و اختار نمطاً يسمو بالإنسان إلى رتب المجد، لقد غدا سيّد الجود، و الإيثار، و الفارس الّذي ينشر الفضائل بين النّاس، ليرقى إلى رتب المجد محقّقاً الخلود الّذي أراده.

و قد اتّخذ عامر بن الطّفيل بطولته نمطاً يرقى بذاته و بقبيلته إلى رتب المجد، فأبرز تفوّقه على خصومه، لتكون الانتصارات نمطاً يدحض الموت و يحقّق شيئاً من الخلود، و بقاء الذّكر الحسن.

لقد أكّد الفرسان ضرورة اقتران البطولة بالأخلاق النّبيلة، و نبذ الأفعال الذّميمة، و كأنّهم يسعون إلى السّمو و الرّفعة، فتتحرّر ذواتهم من قيود الثّأر، أو الغايات الماديّة، و لا تظهر في مساعيهم مصالح شخصيّة، و لا يقابلون إساءة الآخر بمثلها.

المصادر و المراجع:

1-الجهاد، هلال. *جماليّات الشّعر العربيّ(دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشّعريّ الجاهليّ)*، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2007م.

2-الحتّي ، حنّا نصر . *مظاهر القوّة في الشّعر الجاهليّ* ، دار الكتب العلميّة، بيروت_لبنان، 1971م.

3-حدّاد ، مصطفى. *رمزيّة الأنثى في الشّعر الجاهليّ بحث في الميثولوجيا الشّعريّة(رسالة دكتوراة)*، إشراف د. محمود عليّ مكيّ، جامعة القاهرة، 1996م.

4-الصّائغ، عبد الإله. *الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصّورة الفنيّة (القدامة وتحليل النصّ)*، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م.

5-الطّائيّ، حاتم. *الدّيوان* ، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطّائي، قدّم له ووضع هوامشه و فهارسه د.حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربيّ، بيروت-لبنان ، ط1، 1994م.

6-الطفيل، عامر. *الدّيوان*، تحقيق كرم البستاني، رواية أبي بكر الأنباري عن أبي العباس ثعلب، دار صادر، بيروت، 1979م.

7-الطيّب، عبد الله . *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها* ، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت،ج3، ط2، 1989م.

8-عبد الرّحمن، عفيف. *الشعر و أيّام العرب*، دار الأندلس للطباع والنّشر و التّوزيع، بيروت_لبنان، ط1، 1984م.

9-عبد السّلام ،حسن أحمد عبد الحميد . *الموت في الشّعر الجاهليّ*، مطبعة الحسين الإسلاميّة، القاهرة، ط1، 1991م.

10-مرعي، فؤاد. *الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام*، دار الأبجديّة، دمشق، ط1، 1989م.

11–يوسف ، حسني عبد الجليل. *الأدب الجاهليّ (قضايا و فنون ونصوص)*، مؤسسة المختار للنشر و التّوزيع، القاهرة، ط1، 2001م.

Sources and References:

1.Abd Al-Rahman, Afif, Poetry and Ayyam Al-Arab, Dar Al-Andulus for Printing, Publishing and Distribution, Beirut _ Lebanon, 1st Edition, 1984.
2. Abd Al-Salam, Mohsen Ahmad Abd Al-Hamid, Death in Pre-Islamic Poetry, Al-Hussein Islamic Press, Cairo, 1st Edition, 1991.
3.Al-Hani, Hanna Nasr, The Manifestations of Power in Pre-Islamic Poetry, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyya, Beirut _ Lebanon, 1971.
4. Al-Jihad, Hilal, Aesthetics of Arabic Poetry (A Study in the Philosophy of Beauty in Pre-Islamic Poetic Consciousness), Center for Arab Unity Studies, Beirut, 1st Edition, 2007.
5.Al-Sayegh, Abdel-Ilah, Pre-Islamic Creative Discourse and Artistic Image (Qadamah and Text Analysis), Arab Cultural Center, Casablanca, Beirut, 1st Edition, 1997.
6.Al-Ta'i, Hatim, Al-Diwan, Explanation of Abu Saleh Yahya Bin Madrak Al-Ta'i, its introduction, margins and indexes are put to it by Dr. Hanna Nase Al-Hani, Dar Al-Kitaab Al-Arabi, Beirut _ Lebanon, 1st Edition, 1994.
7.Al-Tafil, Amer, Al-Diwan, investigation by Karam Bustani, Abu Bakr Al-Anbari's narration on the authority of Abu Al-Abbas Thaleb, Sader House, Beirut, 1979.
8.Al-Tayyib, Abdullah, The Guide to Understanding the Poetry of Arabs and its Formation, Dar Al-Athar Al-Islamiyyah, Kuwait, 3rd Part , 2nd Edition, 1989..
9. Hadad, Mustafa, The Symbolism of the Female in Pre-Islamic Poetry, a Study in Poetic Mythology (Ph.D Thesis), supervised by Dr. Mahmoud Ali Makki, Cairo University, 1996.
10.Marei, Fuad, Aesthetic Consciousness among Pre-Islamic Arabs, Dar Al-Abjadiyyah, Damascus, 1st Edition, 1989.
11.Youssef, Hosni Abdul-Jalil, Pre-Islamic Literature (Issues, Arts and Texts), Al-Mukhtar Foundation for Publishing and Distribution, Cairo ,1st Edition, 2001.